PSYCHOLOGY AND EDUCATION (2025) 62(03):136-153
ISSN: 1553-6939

Reasoning by Common sense in matters of belief

Elmasri Ahmed[1]

[1]Lecturer Class B, University Ahmed DRAIA of Adrar (Algeria).

The E-mail Author: elmasri.ah@univ-adrar.edu.dz

Received: 10/09/2024 **Published: 05/03/2025**

Abstract:

The one who meditates on the legal texts in the Qur'an and the Sunnah of the Prophet It is noted how much care she took in talking about Common sense and its various meanings, this depends on the context in which it is mentioned.

And what I discussed in this article: It is the meaning whose meaning is linked to the right religion; And the prior Preparations to accept the truth and its meaning; I showed how to benefit from it in making inferences on some issues of belief, Especially the existence and oneness of God.

What I concluded in this article: Nature has multiple meanings, but they are close together and combined into three meanings; The first: Innate nature is what God has created to know the children of Adam. The second: that common sense is the prior readiness to accept the truth and submit to it. Third The common sense is the beginning. The most important issue that is inferred by natural instinct is the issue of the existence and oneness of the Almighty God.

Keywords: Reasoning; Common; sense matters belief.

الاستدلال بالفطرة في مسائل الاعتقاد.

د. المصري أحمد[1]

[1]أستاذ محاضر ب، جامعة أحمد دراية أدرار (الجزائر).

ملخص:

إن المتأمل في النصوص الشرعية في القرآن والسنة النبوية يلحظ مدى العناية التي أولتها في الحديث عن الفطرة ومعانيها المختلفة، وذلك على حسب السياق الذي وردت فيه؛ وما تطرقت إليه في هذا المقال هو المعني الذي يرتبط مدلوله بالدين القويم والاستعداد القبلي لقبول الحق وما في معناه، وبينت كيفية الاستفادة منها في الاستدلال على بعض مسائل العقائد؛ خاصة وجود الله ووحدانيته.

وما خلصت إليه: أن للفطرة معان متعددة ولكنها متقاربة تجمع في ثلاث معان وهي: الأول: الفطرة ما فطر الله عليه بني آدم من معرفته والإقرار بربوبيته والثاني: أن الفطرة هي الاستعداد القبلي لقبول الحق والإذعان له، الثالث: أن الفطرة هي البداءة وفي معناها المعرفة والإنكار. وأن أهم المسائل التي يستدل عليها بالفطرة هي مسألة وجود الباري تعالى ووحدانيته؛ أما ما تعلق بإثبات صفة العلو لله تعالى فكما قلنا فإن الفطرة لا تدل على إثبات مكان أو جهة بعينها في حق الله تعالى وإنما هي إثبات علو شأنه ورتبته على جميع خلقه عزّ وجل

الكلمات المفتاحية: استدلال؛ فطرة؛ مسائل؛ عقيدة.

مقدمة:

الحمد لله على نعمه وآلاءه والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا؛ وبعد:

إن المتأمل في النصوص الشرعية في القرآن والسنة النبوية يلحظ مدى العناية التي أولتها في الحديث عن الفطرة ومعانيها المختلفة على حسب السياق الذي وردت فيه فهي تعني الجبلة أحيانا كما في قوله تعالى: ((فطرت الله التي فطر الناس عليها)) [الروم: 30]، وهي تعني التهيؤ القبلي لقبول الحق أحيانا أخر، وهي تعني أحيانا الدين الحق وهي تعني أيضا السلوك السوي؛ وهذا الأخير يعبر عنه بسنن الفطرة كما جاء في الحديث النبوي: "خمس من الْفِطْرَة الختان، والاستحداد، وقص الشارب، وقلم الظفر، ونتف الآباط" (الحديث أخرجه البخاري)، وهي تعني كذلك ابتداء الأمر كما في قوله تعالى: ((فاطر السموات والارض)) [الأنعام: 14]. كما أن لها معاني أخر يأتي بيانها إن شاء الله.

وما سأتطرق إليه في هذا المقال هو المعاني الأولى المشار إليها. مبيناً كيفية الاستفادة منها في الاستدلال على مسائل العقائد؛ وبالأحرى كيفية الاستفادة منها في الاستدلال على بعض مسائل العقائد.

إشكالية البحث: قد وقع خلاف بين العلماء في تحديد معنى الفطرة الواردة في قول تعالى: ((فطرت الله التي فطر الناس عليها)) [الروم: 30]، وكذا في حديث النبي صلى الله عليه وسلم «مَا من مَوْلُود إِلَّا يُولد عَلَى الْفطْرَة فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَو ينصرَانِهِ أَو يُمَجِّسَانِهِ» (أخرجه البخاري ومسلم بلفظ قريب) إذ ذكر لها ما يزيد عن سبع معان؛ فما هي هذه المعاني وهل هي معان متباينة أم يمكن الجمع بينها؟ وما السبيل للاستفادة بالفطرة في مجال الاستدلال على مسائل العقيدة؟

منهجية البحث: الدراسة في مجال الاستدلال يصلح معها المنهج التحليلي الاستنباطي؛ وكذا والاستقرائي عند الحاجة، وكلامها اعتمدته في هذه الدراسة.

وقد تناول هذا الموضوع وفق الخطة التالية:

أولا. مفهوم الفطرة

1.معنى الفطرة في اللغة:

2.مفهوم الفطرة في الكتاب والسنة

أ. مفهوم الفطرة في القرآن

ب. مفهوم الفطرة في السنة

3.الفطرة في الاصطلاح:

ثانياً. ما يستدل عليه بالفطرة من مسائل الاعتقاد

1.الاستدلال بالفطرة على وجود الله تعالى.

2. الاستدلال بالفطرة على توحيد الربوبية.

3. الاستدلال بالفطرة على صفة العلو لله تعالى.

أولا. مفهوم الفطرة

1.معنى الفطرة في اللغة:

جاء في كتاب العين: [1]

وفطرت الناقة أفطرها فطرا، أي: حلبتها بأطراف الأصابع.

وفطر ناب البعير: طلع. وفطرت العجين والطين، أي: عجنته واختبزته من ساعته، وإذا تركته ليختمر قلت: خمرته، وهو الفطير والخمير.

وفطر الله الخلق، أي: خلقهم، وابتدأ صنعة الأشياء، وهو فاطر السماوات والأرض. والفطرة: التي طبعت عليها الخليقة من الدين. فطرهم الله على معرفته بربوبيته. ومنه: حديث: النبيε: «**وكل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه**»[2].

وجاء في تهذيب اللغة: [3]

[1] الفراهيدي: كتاب العين7/418،417.

[2] أخرجه البخاري ومسلم بلفظ قريب. البخاري؛ باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه..94/2 وفي مواضع اخرى، ومسلم؛ باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة 2047/4، وغيرهما؛ ولم أقف عليه بهذا اللفظ.

[3] الأزهري: تهذيب اللغة 13/ (223.222).

وأخبرني المنذري عن أبي الهيثم أنه قال: الفطرة: الخلقة التي يخلق عليها المولود في بطن أمه. قال: وقوله جل وعز حكاية عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام: **((الذي فطرني فإنه سيهدين))** [الزخرف: 27] ، أي: خلقني. وكذلك قوله تعالى: **((ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون))** [يس: 22] .

وجاء في اللسان: [1]

فطر: فطر الشيء يفطره فطرا فانفطر وفطره: شقه. وتفطر الشيء: تشقق. والفطر: الشق، وجمعه فطور. وفي التنزيل العزيز: هل ترى من فطور؛ وأنشد ثعلب:

شققت القلب ثم ذررت فيه ... هواك، فليم، فالتأم الفطور

وأصل الفطر: الشق؛ ومنه قوله تعالى: **((إذا السماء انفطرت))** [الانفطار: 1] ؛ أي انشقت، وفي الحديث: «**قام رسول الله** ε **حتى تفطرت قدماه** »؛ أي انشقتا. يقال: تفطرت وانفطرت بمعنى، ومنه أخذ فطر الصائم لأنه يفتح فاه.

وفي التنزيل: **((السماء منفطر به كان وعده مفعولا))** [المزمل: 18]؛ ذكر على النسب كما قالوا: دجاجة معضل.

والشاة يفطرها فطرا: حلبها بأطراف أصابعه، وقيل: هو أن يحلبها كما تعقد ثلاثين بالإبهامين والسبابتين. قال الجوهري: الفطر حلب الناقة بالسبابة والإبهام، والفطر: القليل من اللبن حين يحلب.

وفطر الله الخلق يفطرهم: خلقهم وبدأهم. والفطرة: الابتداء والاختراع. وفي التنزيل: **((الحمد لله فاطر السموات والارض))** [فاطر: 1]؛ قال ابن عباس، رضي الله عنهما: "ما كنت أدري ما فاطر السماوات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها"[2]؛ أي أنا ابتدأت حفرها.

والفِطرة، بالكسر: الخِلقة؛ أنشد ثعلب:

هون عليك فقد نال الغنى رجل، ... في فطرة الكلب، لا بالدين والحسب

والفطرة: ما فطر الله عليه الخلق من المعرفة به. وقد فطره يفطره، بالضم، فطرا أي خلقه.[3]

من خلال استعراضنا لما ورد في القواميس اللغوية في معنى الفطرة فيمكن أن نقول إنها ترجع إلى المعاني التالية:

الحلب بأطراف الأصابع، والطلوع، والخلق، والابتداء، والشق، والخِلقة، وما فطر الله عليه الخلق من معرفته. وهذه المعاني وردت في القرآن والسنة، وهي المعتبرة في التعريف الاصطلاحي للفطرة كما سيأتي.

2.مفهوم الفطرة في الكتاب والسنة:

أ. مفهوم الفطرة في القرآن:

[1] ابن منظور: لسان العرب 55/5.
[2] أخرجه الشافعي: مسند الإمام الشافعي 74/1.
[3] ابن منظور: لسان العرب 56/5.

ما جاء في تفسير الفطرة في القرآن لا يختلف عما ذكر في معاجم اللغة؛ وسأشير في هذا الفرع لجملة من المعاني التي ذكرت للفطرة من خلال كتب التفسير وغريب القرآن:

قال الراغب:

قوله: **((فطرت الله التي فطر الناس عليها))** آ [الروم: 30]، فإشارة منه تعالى إلى ما فطر. أي: أبدع وركز في الناس من معرفته تعالى، وفطرة الله: هي ما ركز فيه من قوته على معرفة الإيمان، وهو المشار إليه بقوله تعالى: **((ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله))** [الزخرف: 87].

وقوله تعالى: **((هل ترى من فطور))**[الملك: 3] ، أي: اختلال ووهي فيه، وذلك قد يكون على سبيل الفساد، وقد يكون على سبيل الصلاح.

وقوله تعالى: **((الحمد لله فاطر السموات والارض))** [فاطر: 1] ، وقوله: **((الذي فطرهن))**[الأنبياء: 56]،**((والذي فطرنا))**[طه: 72]، أي: أبدعنا وأوجدنا؛ يصح أن يكون الانفطار في قوله تعالى: **((السماء منفطر به))**[المزمل:18] ، إشارة إلى قبول ما أبدعها وأفاضه علينا منه.[1]

وجاء في كتاب غريب القرآن:

قوله تعالى: **((فاطر السموات والارض))**آ [الأنعام: 14]أي: مبتدئهما. ومنه قول النبي ε: "كل مولود يولد على الفطرة" أي على ابتداء الخلقة. يعني الإقرار بالله حين أخذ العهد عليهم في أصلاب آبائهم.[2]

وقوله تعالى: ((فطرت الله التي فطر الناس عليها)) [الروم: 30]؛ أي خِلْقَة الله التي خَلق الناس عليها؛ وهي: أن فطرهم جميعا على أن يعلموا أن لهم خالقا ومدبرا.

وقوله تعالى: **((لا تبديل لخلق الله))** [الروم: 30]؛ أي لا تغيير لما فطرهم عليه من ذلك. ثم قال عز من قائل: **((ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون))** [الروم: 30].[3]

وقال الإمام الطبري في تفسير آية الروم: يقول تعالى ذكره: فسدّد وجهك نحو الوجه الذي وجهك إليه ربك يا محمد لطاعته، وهي الدين، (حَنِيفًا) يقول: مستقيما لدينه وطاعته (فِطرةَ اللهِ التي فَطَر النَّاسَ عَلَيْهَا) يقول: صنعة الله التي خلق الناس عليها ونصبت "فطرة" على المصدر من معنى قوله: (فَأَقِم وَجْهَكَ للدّينِ حَنِيفًا) وذلك أن معنى ذلك: فطر الله الناس على ذلك فطرة.[4]

وقال الزمخشري في تفسيرها: (والفطرة: الخلقة. ألا ترى إلى قوله لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ والمعنى: أنه خلقهم قابلين للتوحيد ودين الإسلام، غير ناءين عنه ولا منكرين له، لكونه مجاوبا للعقل، مساوقا للنظر الصحيح، حتى لو تركوا لما اختاروا عليه دينا آخر، ومن غوى منهم فبإغواء شياطين الإنس والجن. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم **«كل عبَادي خلقت حنفَاء فَاجْتَالَتْهُمْ الشَّيَاطِين وَأمرُوهُمْ أَن يشركوا بِي غَيْرِي»**[5] وقوله عليه السلام: **«مَا من مَوْلُود**

[1] الراغب الأصفهاني: المفردات ص 640.
[2] ابن قتيبة: غريب القرآن، تحقيق: أحمد صقر؛ الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ 1398هـ - 1978م ص 151.
[3] ابن قتيبة: غريب القرآن ص341.
[4] الطبري: جامع البيان 97/20.
[5] أخرجه مسلم في صحيحه بلفظ قريب؛ باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار 2197/4.

إِلَّا يُولد عَلَى الْفطْرَة فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَو ينصرَانِهِ أَو يُمَجِّسَانِهِ» الحديث[1] (لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ)؛ أي ما ينبغي أن تبدّل تلك الفطرة أو تغير.)[2]

وقال الفخر الرازي: (ثم قال الله تعالى: (فطرت الله) أي الزم فطرة الله وهي التوحيد؛ فإن الله فطر الناس عليه حيث أخذهم من ظهر آدم وسألهم **((ألست بربكم))**[الأعراف: 172] فقالوا: بلى، وقوله تعالى: (لا تبديل لخلق الله) فيه وجوه، قال بعض المفسرين هذه تسلية للنبي ε عن الحزن حيث لم يؤمن قومه فقال هم خلقوا للشقاوة ومن كتب شقيا لا يسعد، وقيل: (لا تبديل لخلق الله) أي الوحدانية مترسخة فيهم لا تغير لها حتى إن سألتهم من خلق السموات والأرض يقولون الله، لكن الإيمان الفطري غير كاف.

ويحتمل أن يقال خلق الله الخلق لعبادته وهم كلهم عبيده لا تبديل لخلق الله أي ليس كونهم عبيدا مثل كون المملوك عبدا لإنسان فإنه ينتقل عنه إلى غيره ويخرج عن ملكه بالعتق بل لا خروج للخلق عن العبادة والعبودية، وهذا لبيان فساد قول من يقول العبادة لتحصيل الكمال والعبد يكمل بالعبادة فلا يبقى عليه تكليف، وقول المشركين: إن الناقص لا يصلح لعبادة الله، وإنما الإنسان عبد الكواكب والكواكب عبيد الله، وقول النصارى إن عيسى كان يحل الله فيه وصار إلها فقال: لا تبديل لخلق الله بل كلهم عبيد لا خروج لهم عن ذلك.)[3]

والتعريف في (الدين) للعهد وهو دينهم الذي هم عليه وهو دين الإسلام، وحنيفا يجوز أن يكون حالاً من الضمير المستتر في فعل" أقم "فيكون حالاً للنبي ε، وهذا هو الأظهر في تفسيره[4].

ب. مفهوم الفطرة في السنة:

جاء في تفسير غريب ما في الصحيحين:

(أصبت الفطْرَة) يعني الخلقة التي خلق الإنسان عليها وأخذ عليه العهد بها وتبيان ذلك في قوله تعالى: **((وإذ أخذ ربك من بني ءادم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى))** [الأعراف: 172]، وفي قول النبي: «**كل مَوْلُود يُولد على الْفطْرَة فَأَبَوَاهُ يهودانه وَيُنَصِّرَانِهِ..** »[5]فأصل الخلقة الإيمان ثم يحدث ما يبطله بالتعليم والنشأة في حجور المشركين.[6]

وفي موضع آخر: الفطرة الْخلقَة التي خلقت عليها من السلامة والبراءة من الشّرك[7]، والفطرة: أول الْخلقَة وفطر الله الخلق أي ابتدع خلقهم والفاطر الخالق المبدع سبحانه وتعالى.[8]

[1] أخرجه البخاري ومسلم بلفظ قريب، البخاري؛ باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه..94/2 وفي مواضع أخرى، ومسلم؛ باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة 2047/4.
[2] الزمخشري: الكشاف 479/3.
[3] الفخر الرازي: مفاتيح الغيب 99/52. 98.
[4] محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير 89/21.
[5] الحديث سبق تخريجه ص162.
[6] محمد بن فتوح الميورقي: تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم، تحقيق: الدكتورة: زبيدة محمد سعيد عبد العزيز؛ الناشر: مكتبة السنة ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى 1415هـ / 1995م ص 252.
[7] المرجع نفسه ص 265.
[8] المرجع نفسه ص 275.

وقوله صلى الله عليه وسلم **"خمس من الْفطْرَة"**[1]؛ أي من الدين.[2]،وكذلك قوله: **"عشر من الْفطْرَة "**[3]؛ أي من الدين الذي فطر الله خلقه عليه واختاره لهم.[4]

وما يهمنا في هذا المقام هو ما جاء في قول النبي ε: **"كل مولود يولد على الفطرة"**.

قال حماد بن سلمة على معرفة الله فلست واجدا أحدا إلا وهو يقر بأن له صانعا وإن سماه بغير اسمه أو عبد غيره وقال غيره على الخِلقة التي فطر عليها في بطن أمه من سعادة أو شقاوة.[5]

ويقول أبو هريرة رضي الله عنه معقبا بعد ذكره حديث: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؛ ((فطرت الله التي فطر الناس عليها))** [الروم: 30]. »[6]

ويقول العيني في شرح الحديث:

(ما من مولود) كل: من، زائدة، ومولود، مبتدأ ويولد خبره وتقديره: ما من مولود يوجد على أمر إلا على الفطرة، وهي في اللغة: الخِلقة، والمراد بها هنا، ما يراد في الآية الشريفة: وهي **الدين**؛ أي دين الحق وهو الاسلام، وقوله: (فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) معناه :أنهما يعلمانه ما هو عليه ويصرفانه عن الفطرة، ويحتمل أن يكون المراد يرغبانه في ذلك، وقوله :(كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء)؛ قال الطيبي :(كما) إما حال من الضمير المنصوب في (يهودانه)، مثلا فالمعنى: يهودان المولود بعد أن خلق على الفطرة شبيها بالبهيمة التي جدعت بعد أن خلقت سليمة، وقوله:(جمعاء)؛ هي البهيمة التي لم يذهب من بدنها شيء سميت بها لاجتماع سلامة أعضائها لا جدع ولا كي، وقوله: (هل تحسون فيها من جدعاء)؛ في موضع الحال على التقديرين، أي بهيمة سليمة مقولا في حقها هذا القول، وفيه نوع من التأكيد، يعني كل من نظر إليها قال هذا القول لظهور سلامتها ،والجدعاء البهيمة التي قطعت أذنها من جدع إذا قطع الأذن والأنف، وتخصيص الجمع إيماء إلى أن تصميمهم على الكفر إنما كان بسبب صممهم عن الحق، وأنه كان خليقا فيهم.[7]

فمعنى الفطرة على حسب قول العيني هي الدين القويم؛ وهو دين الإسلام. وهو من المعاني الاصطلاحية التي ذكرها أهل العلم، وتفصيل ذلك في الفرع التالي.

3.الفطرة في الاصطلاح:

اختلف العلماء في تحديد معنى الفطرة المذكورة في القرآن الكريم في قوله تعالى: **((فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون))**[الروم: 30]،

[1] أخرجه البخاري باب قص الشارب 160/7، ومسلم باب خصال الفطرة 221/1، وغيرهما.
[2] محمد بن فتوح الميورقي: تفسير غريب ما في الصحيحين ص 285.
[3] أخرجه ومسلم؛ باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة 2047/4، وغيره. سبق تخريجه.
[4] المرجع السابق ص 555.
[5] ابن الجوزي: غريب الحديث، تحقيق: د. عبد المعطي أمين القلعجي؛ الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى 1405هـ/1985م 199/2.
[6] أخرجه البخاري: باب إذا أسلم الصبي فمات فهل يصلى عليه.. 94/2.
[7] العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري؛ الناشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ 177/8، وانظر: دور التربية الإسلامية في الحفاظ على الفطرة السليمة وسبل تعزيزه من خلال المؤسسات التربوية أطروحة ماجستير؛ إعداد: الطالبة. أسماء عودة عطا الله الصوفي، إشراف: د. حمدان عبد الله الصوفي، قسم أصول التربية بكلية التربية في الجامعة الإسلامية بغزة 1432هـ/2011م ص (16، 17).

والمذكورة في السنة في قول رسول الله ε: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ**».[1]

وقد أورد الإمام ابن القيم في كتابه شفاء العليل الخلاف في المسألة في الباب الثلاثين والذي عنون له بقوله: الباب الموفي ثلاثين: في ذكر الفطرة الأولى ومعناها واختلاف الناس في المراد بها وأنها لا تنافي القضاء والقدر بالشقاوة والضلال.[2]

ويمكن تفصيل أقوال العلماء في معنى الفطرة على النحو الآتي:

أ. **الخِلقة التي خلق عليها المولود من المعرفة بربه:**

وهو قول جماعة من أهل الفقه والنظر كما قال ابن عبد البر: ((قالت جماعة من أهل الفقه والنظر :أريد بالفطرة المذكورة في هذا الحديث الخلقة التي خلق عليها المولود في المعرفة بربه، فكأنه قال :كل مولود يولد على خلقة يعرف بها ربه - إذا بلغ مبلغ، المعرفة، يريد خلقة مخالفة لخلقة البهائم التي لاتصل بخلقها إلي معرفة ذلك))[3]

وللإمام الزمخشري كلام قريب من هذا المعنى حيث قال: ((الفطرة(الخِلقة) ألا ترى إلى قوله: **((لا تبديل لخلق الله))** [الروم: 30]؛ والمعنى أنه خلقهم قابلين للتوحيد ودين الإسلام، غير نائين عنه ولا منكرين له، لكونه مجاوبا للعقل، مساوقا للنظر الصحيح، حتى لو تركوا لما اختاروا عليه دينا آخر.))[4].

وقريب من ذلك ما ذكره الجرجاني في تعريف الفطرة حيث قال: "الفطرة: الجِبِلَّة المتهيئة لقبول الدين"[5].والمقصود بالدين هنا دين الحق وهو دين الإسلام.

ب. السلامة والاستقامة:

ممن ذهب لذلك ابن تيمية حيث قال في معناها: "هي السلامة من الاعتقادات الباطلة والقبول للعقائد الصحيحة"[6] وهذا المعنى ليس ببعيد عن سابقه.

ج. الإسلام:

أنّ تعريف الفطرة بالإسلام معروف عند عامة السلف من أهل العلم والتأويل.

واحتجوا بما قاله أبو هريرة في هذا الحديث اقرءوا إن شئتم**((فطرت الله التي فطر الناس عليها))**[الروم: 30].[7]أي: دين الله الإسلام.

---

[1] سبق تخريجه ص 162.
[2] انظر: ابن قيم الجوزية: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل؛ الناشر: دار المعرفة ـ بيروت ـ 1398هـ/1978م 289/1 وما بعدها.
[3] ابن عبد البر: الاستذكار، تحقيق: سالم محمد عطا، ومحمد علي معوض؛ الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت ـ الطبعة الأولى 1421هـ/2000م 101/3
[4] الزمخشري: الكشاف 479/3.
[5] الجرجاني: التعريفات ص 168.
[6] ابن تيمية: مجموع الفتاوى 245/4.
[7] أخرجه البخاري: باب إذا أسلم الصبي فمات فهل يصلى عليه.. 94/2. وانظر: أسماء عودة عطا الله: دور التربية الإسلامية في الحفاظ على الفطرة السليمة ص 17.

وقال بن قيم الجوزية: ((مما ينبغي أن يعلم أنه إذا قيل: إنه ولد على الفطرة أو على الإسلام، أو على هذه الملة أو خلق حنيفاً، فليس المراد به أنه خرج من بطن أمه يعلم هذا الدين فإن الله يقول: **((والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا))** [النحل: 78]؛ ولكن فطرته موجبة مقتضية لدين الإسلام والإقرار به ومحبته، فنفس الفطرة تستلزم الإقرار بالخالق ومحبته وإخلاص دينه له. وموجبات الفطرة ومقتضياتها تحصل شيئا فشيئا ،بحسب كمال الفطرة إذا سلمت من المعارض))[1]

د. البداءة:

البدأة التي ابتدأهم عليها ما فطر الله عليه خلقه من أنه ابتدأهم للحياة والموت والشقاء والسعادة وإلى ما يصيرون إليه عند البلوغ؛ وقريب من هذا ما أشر إليه ابن تيمية بقوله: وقد روي عن الإمام أحمد وعن ابن المبارك وعنهما: أنهم قالوا: يولد على ما فطر عليه من شقاوة وسعادة؛ وهذا القول لا ينافي الأول (يقصد من كونه ولد على الإسلام) فإن الطفل يولد سليما وقد علم الله أنه سيكفر فلا بد أن يصير إلى ما سبق له في أم الكتاب كما تولد البهيمة جمعاء وقد علم الله أنها ستجدع.؛ وهذا معنى ما جاء في صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّ الْغُلَامَ الَّذِي قَتَلَهُ الْخَضِرُ طُبِعَ كَافِرًا، وَلَوْ عَاشَ لَأَرْهَقَ أَبَوَيْهِ طُغْيَانًا وَكُفْرًا**»[2]؛ يعني طبعه الله في أم الكتاب أي كتبه وأثبته كافرا؛ أي أنه إن عاش كفر بالفعل.[3]

واحتج أصحاب هذا القول بحديث ابن عباس رضي الله عنهما – قال: " لم أكن أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتى أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما :أنا فطرتها: أي ابتدأتها"[4].

واحتجوا بقول الله تعالى: **((كما بدأكم تعودون، فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة))** [الأعراف: 29 – 30].[5]

ه. العهد والميثاق الذي أخذه الله على بني آدم:

كما جاء في قوله تعالى: **((وإذ أخذ ربك من بني ءادم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى))** [الأعراف: 172]؛ فأقروا جميعا بالربوبية عن معرفة منهم به، ثم أخرجهم من أصلاب آبائهم مخلوقين مطبوعين على تلك المعرفة وذلك الإقرار، وقالوا ليست المعرفة بإيمان ولا ذلك الإقرار بإيمان، ولكنه إقرار من الطبيعة للرب، فطرة ألزمها قلوبهم، ثم أرسل إليهم الرسل فدعوهم إلى الاعتراف له بالربوبية والخضوع.[6]

و. الإنكار والمعرفة:

قال آخرون: معنى قوله: **"كل مولود يولد على الفطرة"** أن الله فطرهم على الإنكار والمعرفة والكفر والإيمان فأخذ من ذرية أدم الميثاق حين خلقهم فقال :ألست بربكم قالوا جميعا بلى، فأما أهل السعادة فقالوا بلى على معرفة له طوعا من قلوبهم، وأما أهل الشقاء فقالوا بلى كرها.[7]

---

[1] ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، تحقيق: يوسف بن أحمد البكري وشاكر بن توفيق العاروري؛ الناشر: رمادى للنشر- الدمام ـ الطبعة الأولى 1418هـ /1997م 1020/2.وأيضا: شفاء العليل ص289.

[2] أخرجه مسلم باب معنى كل مولود يولد على الفطرة.. 2050/4.

[3] ابن تيمية: مجموع الفتاوى 246/4.

[4] لم أقف عليه في كتب الحديث، ذكره القرطبي في تفسيره، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش؛ الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة ـ الطبعة الثانية 1384هـ/1964م 25/14.

[5] القرطبي: الجامع لأحكام القرآن 25/14. ينظر: أسماء عودة: دور التربية الإسلامية ص19.

[6] ابن كثير: تفسير ابن كثير انظر: 500/3 وينظر: أسماء عودة: دور التربية الإسلامية ص19.

[7] العيني: عمدة القاري 179/8. وينظر: أسماء عودة: دور التربية الإسلامية ص21.

واحتجوا بقول الله سبحانه وتعالى: ((**أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون**)) [آل عمران: 83].

وعند النظر في هذه الأقوال يمكن اختصارها في ثلاثة معان جامعة:

الأول: الفطرة **ما فطر الله عليه بني آدم من معرفته والإقرار بربوبيته** ويدخل في ذلك العهد والميثاق، والإسلام.

والثاني: أن الفطرة هي **الاستعداد القبلي لقبول الحق والإذعان له**. والمعبر عنه بالسلامة والاستقامة.

الثالث: أن الفطرة هي **البداءة** وفي معناها المعرفة والإنكار.

وأرى أن أقرب المعاني إلى الصواب هو معنى الأول والثاني؛ أي: ما فطر الله عليه بني آدم من معرفته والإقرار بربوبيته ويدخل في ذلك العهد والميثاق، والإسلام والمعنى الثاني: الاستعداد القبلي لقبول الحق والإذعان له. والمعبر عنه بالسلامة والاستقامة.

مع أن المعنى الثالث لا يناقضهما كما يرى الإمام ابن تيمية حيث قال: وقد روي عنه [يقصد الإمام أحمد] وعن ابن المبارك وعنهما: أنهما قالا: (يولد على ما فطر عليه من شقاوة وسعادة)؛ وهذا القول لا ينافي الأول [يقصد من قال إنّ الفطرة هي الإسلام بمعنى السلامة من الاعتقادات الباطلة والقبول للعقائد الصحيحة] فإن الطفل يولد سليما وقد علم الله أنه سيكفر فلا بد أن يصير إلى ما سبق له في أم الكتاب كما تولد البهيمة جمعاء وقد علم الله أنها ستجدع.[1]

وهذا معنى ما جاء في صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغلام الذي قتله الخضر: «**طبع يوم طبع كافرا؛ ولو ترك لأرهق أبويه طغيانا وكفرا**»[2] يعني طبعه الله في أم الكتاب أي كتبه وأثبته كافرا؛ أي أنه إن عاش كفر بالفعل.

ولهذا لما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن يموت من أطفال المشركين وهو صغير قال: «**اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ**»[3] أي الله يعلم من يؤمن منهم ومن يكفر لو بلغوا.[4]

وأرى أن الكلام الجامع في هذا ما جاء في كتاب الفقه الأكبر تحت عنوان ما فطر الله عليه الخلق: ((خلق الله تعالى الخلق سليما من الكفر والإيمان ثم خاطبهم وأمرهم ونهاهم فكفر من كفر بفعله وإنكاره وجحوده الحق بخذلان الله تعالى إياه وآمن من آمن بفعله وإقراره وتصديقه بتوفيق الله تعالى إياه ونصرته له أخرج ذرية آدم من صلبه فجعلهم عقلاء فخاطبهم وأمرهم بالإيمان ونهاهم عن الكفر فأقروا له بالربوبية فكان ذلك منهم إيمانا فهم يولدون على تلك الفطرة ومن كفر بعد ذلك فقد بدل وغير ومن آمن وصدق فقد ثبت عليه وداوم)).[5]

[1] ابن تيمية: مجموع الفتاوى 246/4.
[2] أخرجه مسلم؛ سبق تخريجه ص 167.
[3] أخرجه البخاري باب الله أعلم بما كانوا عاملين 121/8.
[4] انظر: ابن تيمية: مجموع الفتاوى 246/4.
[5] أبو حنيفة النعمان: الفقه الأكبر (مطبوع مع الشرح الميسر على الفقهين الأبسط والأكبر المنسوبين لأبي حنيفة تأليف محمد بن عبد الرحمن الخميس)؛ الناشر: مكتبة الفرقان ـ الإمارات العربية ـ الطبعة الأولى 1419هـ / 1999م ص 31.

ويؤيد هذا ما جاء في كلام الإمام الخطابي في شرحه لحديث أبي هريرة عند البخاري، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم **"ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعا؟** ثم يقول: **((فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم))"**.

أصل الفطرة في اللغة: ابتداء الخلقة، ومنه قول الله عز وجل: **((الحمد لله فاطر السموات والأرض))** أي مبتدئهما، ومن ذلك قولهم: فطر ناب البعير إذا طلع أول ما ينبت.

وقد ذهب قوم في معنى الفطرة المذكورة في الحديث إلى أن المراد به الدين، واستدلوا على ذلك ببيان ما استشهد له من الآية حين تلاها عقيب الحديث وهو قوله: (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم) مع ما تقدمه من قوله: (فأقم وجهك للدين حنيفا) قالوا: فقد اعتورها البيان من أول الآية وآخرها، فدل أن المراد بها الدين، واستشهدوا على ذلك أيضا بقوله: كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء. والجمعاء هي السليمة التي لا عيب فيها ولا نقص، سميت بذلك لاجتماع السلامة لها في أعضائها، لا جدع بها ولا خرم، حتى يحدثهما فيها أربابها، ضرب البهيمة السليمة الخلقة أول ما تنتج مثلا للمولود في سلامة فطرته من الشرك والإلحاد أول ما يولد حتى يكون ما يكون من ذلك بعد.

قلت: وهذا هو حق الظاهر من لفظ الحديث ومعناه، لولا أن أحاديث أخر عارضته، منها حديث أبي بن كعب، وهو حديث صحيح الإسناد قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في قوله: **"وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين وكان طُبع يوم طبع كافرا."** [1]

وحديث عائشة **"حين أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بصبي من صبيان الأنصار يصلي عليه فقالت: طوبى لهذا، لم يعمل سوءا ولم يدر به، فقال: أو غير ذلك يا عائشة، إن الله عز وجل خلق الجنة وخلق لها أهلا وخلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم، وخلق النار وخلق لها أهلا، وخلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم".** [2]

وحديثها الآخر: **"قالت يا رسول الله، ذراري المؤمنين. فقال: من آبائهم. قلت: يا رسول الله، بلا عمل، قال: الله أعلم بما كانوا عاملين. قلت: يا رسول الله، فذراري المشركين قال: من آبائهم. قلت: بلا عمل، قال: الله أعلم بما كانوا عاملين"** فاحتيج من أجل ذلك في حديث أبي هريرة إلى التأويل والتخريج لتتفق الأحاديث كلها ولا تتضاد وتختلف، فكان المعنى الذي تضمنه الخبر: أن كل مولود من البشر إنما يولد في أول مبدأ الخلق وأصل الجبلة على الفطرة السليمة والطبع المتهيئ لقَبول الدين، فلو ترك عليها وخلي وسَوْمَها لاستمر على لزومها ولم ينتقل عنها إلى غيرها، وذلك أن هذا الدين باد حسنه في العقول، ويسره في النفوس، وإنما يعدل عنه من يعدل إلى غيره ويؤثره عليه لآفة من آفات النشؤ [النشوء] والتقليد، ولو سلم المولود من تلك الآفات لم يعتقد غيره ولم يختر عليه ما سواه.

[1] أخرجه مسلم؛ سبق تخريجه ص 167.

[2] «سنن أبي داود - ت الأرنؤوط» (7/ 96):

«(2) حديث صحيح، وهذا إسناد حسن. طلحة بن يحيى: صدوق حسن الحديث» انظر: أبو داود: سنن أبي داود، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - محمد كامل قره بللي؛ الناشر: دار الرسالة العالمية الطبعة: الأولى، 1430 هـ - 2009 م والحديث رواه النسائي واحمد بغير هذا اللفظ كما عند مسلم.

وحاصل المعنى من هذا الحديث: إنما هو الثناء على هذا الدين، والإخبار عن محله من العقول وحسن موقعه من النفوس.[1]

وما نخلص إليه أن الفطرة ما فطر عليه الإنسان من معرفة الله والإقرار بربوبيته وأخذ الميثاق والعهد على ذلك؛ فإن من ثبت عليه فباختياره وتوفيق الله له، ومن أخلف فباختياره وخذلان الله له.

ثانياً. ما يستدل عليه بالفطرة من مسائل الاعتقاد:

قد أشرنا فيما سبق بأن الله سبحانه وتعالى فطر خلقه على الإيمان به والإقرار بربوبيته؛ وعليه فإن أهم المسائل التي يستدل عليها بالفطرة هي مسألة وجود الباري عز وجل ومسألة توحيده (وبالخصوص ما يسمى توحيد الربوبية). على هذا الأساس سنفصل القول:

1. الاستدلال بالفطرة على وجود الله تعالى.

تعد الفطرة السليمة من أقوى الأدلة على وجود الباري عزّ وجلّ؛ وقد ذهب الكثير من العلماء إلى القول بفطرية وجود الباري جل وعلا ومن هؤلاء نجد" ابن القيم" الذي يقول: ((أن وجود الرب تعالى أظهر للعقول والفطر من وجود النهار، ومن لم يجد ذلك في عقله وفطرته فليتهمهما)).[2]

وهو رأي ابن الوزير الذي يقول في باب إثبات الطرق إلى الله تعالى "وبيان أجلاها وأوضحها على سبيل الاجمال": ((اعلم أن هذا من أوضح المعارف التي دلت عليها الفطرة التي خلق الخلق عليها ولذلك قال كثير من العقلاء والعلماء والأولياء أنه ضروري لا يحتاج إلى نظر وقال آخرون إنما يحتاج إلى تذكر يوقظ من سنة الغفلة كتذكر الموت الذي تقع الغفلة عنه وهو ضروري.))[3]

وقريب منه قول وهبي سليمان غاوجي الألباني الذي يقول: ((اتفق أهل العقل والفطرة السليمة من الجن والإنس على وجود الله تعالى بل وجوب وجوده سبحانه وكما دل على هذه الحقيقة الكبرى الفطرة السليمة المودعة في النفوس والعقول الخالصة من الهوى والمودعة في الرؤوس...)).[4]

ومن المعاصرين نجد الدكتور "عبد الكريم نوفان عبيدات" الذي يقول :إن الإيمان بوجود الخالق للكون أمر معروف بالفطرة الإنسانية، وخاصة في لحظات الشدة وهذه حقيقة قرآنية نجدها في عدد من الآيات القرآنية من ذلك:

- قوله تعالى: **((قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والارض))** [إبراهيم: 10]؛ وقد ذكر ابن كثير وجهين في تفسير قوله تعالى (أفي الله شك) أحدهما: أفي وجوده شك؛ فإن الفطرة شاهدة بوجوده ومجبولة على الإقرار به فإن الاعتراف به ضروري في الفطرة السليمة.[5]

---

[1] أبو سليمان الخطابي أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري)، تحقيق: د. محمد بن سعد بن عبد الرحمن آل سعود؛ الناشر: جامعة أم القرى (مركز البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي) الطبعة: الأولى، 1409*هـ - 1988 م ص 13-16.

[2] ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين 83/1.

[3] ابن الوزير: إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد؛ الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الثانية، 1987م ص 44.

[4] انظر: بدر الدين بن جماعة: إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل، تحقيق: وهبي سليمان غاوجي الألباني، الناشر: دار السلام للطباعة والنشر – مصر، الطبعة: الأولى، 1410هـ - 1990م ص19.

[5] ابن كثير: تفسير ابن كثير 482/4.

- قوله تعالى: **((ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله))**[لقمان:25].وغيرها من الآيات المشابهة التي تدل على أن المشركين كانوا يعترفون ويقرون بوجود الله تعالى، ولكنهم يعبدون معه شركاء، ويعترفون أنهم خلق وملك لله سبحانه.

وقد نسب هذا الرأي" للدكتور "عبد الحليم محمود الذي يرى بأنه لا ينبغي أن توضع مسألة وجود الله تعالى في إطار البحث والدراسة؛ لأنه حسب رأيه إنما جاء الإسلام ليثبت وحدانية الله لا وجوده.[1]

وهذا فيه نظر؛ كيف؟! والقرآن مملوء بدلائل وجوده عزّ وجلّ وكذلك السنة.

كما أن الفطرة في كثير من الأحيان تفسد؛ فتحتاج إلى ما يرجع إليها نقاءها وهنا يأتي دور البراهين الواضحة من خلال النظر في الدلائل المودعة في الكون وهو ما نبه إليه القرآن في قوله تعالى: **((فاطر السموات والارض))**[إبراهيم: 10].

وقد أشار الإمام ابن كثير لذلك في قوله: ((ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطراب، فتحتاج إلى النظر في الدليل الموصل إلى وجوده؛ ولهذا قالت لهم الرسل ترشدهم إلى طريق معرفته بأنه (فاطر السماوات والأرض) الذي خلقها وابتدعها على غير مثال سبق، فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر عليها، فلا بد لها من صانع، وهو الله لا إله إلا هو، خالق كل شيء وإلهه ومليكه.)).[2]

ويقول الدكتور عمر سليمان الأشقر: ((لا شك أنّ الفطرة تدعو المرء إلى الاتجاه إلى الخالق، لكنّ الإنسان تحيط به مؤثرات كثيرة تجعله ينحرف حينما يتجه إلى المعبود الحق. فيما يغرسه الآباء في نفوس الأبناء، وما يلقيه الكتّاب والمعلمون والباحثون في أفكار الناشئة يبدّل هذه الفطرة ويقذرها، ويلقي عليها غشاوة، فلا تتجه إلى الحقيقة؛ وهذا ما يفهم من حديث النبيε: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ**»[3].))[4]

ومما يجلي الفطرة ويصفيها: المصائب التي تلم بالإنسان؛ فكثيراً ما تنكشف الحجب عن الفطرة، فتزول عنها الغشاوة التي رانت عليها عندما تصاب بمصاب أليم، أو تقع في مأزق لا تجد فيه من البشر عوناً، وتفقد أسباب النجاة، فكم من ملحد عرف ربّه وآب إليه عندما أحيط به، وكم من مشرك أخلص دينه لله لضرّ نزل به قال تعالى: **((هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الوج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن انجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين))**[يونس: 22].[5]

ما نخلص إليه أنه وإن اعتبرت الفطرة دالة على وجود الباري عزّ وجلّ فإنها تعدّ غير كافية عند من فسدت فطرهم؛ وهو رأي كثير من العلماء لا سيما المتكلمون.

2. الاستدلال بالفطرة على توحيد الربوبية:

[1] انظر: د .عبد الكريم نوفان عبيدات: الدلالة العقلية في القرآن (257- 264).
[2] ابن كثير: تفسير ابن كثير 482/4.
[3] سبق تخريجه ص 162.
[4] د. عمر سليمان الأشقر: العقيدة في الله؛ الناشر: دار النفائس للنشر والتوزيع ـ الأردن ـ الطبعة الثانية عشر 1419هـ / 1999م ص (69، 70).
[5] انظر: د. عمر سليمان الأشقر: العقيدة في الله ص71.

والمراد بتوحيد الربوبية التوحيد الاعتقادي بأن للكون خالقا ومدبرا واحدا يدبر شؤون الخلق جميعا.

يقول شارح الطحاوية: ((وهذا التوحيد لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم، بل القلوب مفطورة على الإقرار به أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات، كما قالت الرسل فيما حكى الله عنهم: **((قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والارض))** [إبراهيم: 10]..))[1]

وقد مرّ معنا أن الإقرار بالتوحيد يعد من المسائل التي فطر عليها الإنسان ولكن هذا الإقرار لا يعني بأن البشر كلهم يؤمنون بهذا النوع من التوحيد على حقيقته وكماله وبشروطه إنما هو نوع من الإقرار المتعلق بإثبات الخالقية والرازقية لله تعالى من كونه موجد لكل ما سواه جلّ وعلا.

ولا يمكن بحال أن نقبل ما أدعاه صاحب القول من أنه لم يأتي القرآن والسنة على التدليل على توحيد الربوبية وأن السلف الصالح لم يسلكوا طريق البرهنة عليه؛ بل هناك كثير من نصوص القرآن والسنة وأقوال السلف جاءت في تقرير هذا النوع من التوحيد وإن لم يظهر ذلك جلياً كما يبدوا في توحيد الإلهية فالكل موضوع دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام ولا شك في ذلك. بل ما يعد دليل على توحيد الإلهية يكون دليلا على توحيد الربوبية؛ والعكس صحيح لكونهما متلازمان.

وقول الإمام ابن قيم الجوزية في هذا يدعم ما ذهبت إليه؛ حيث يقول: ((لو كان معه إله آخر لكان الإله مشاركًا له في ربوبيته كما شاركه في إلهيته، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، وهذه قاعدة القرآن؛ يقرر توحيد الإلهية بتوحيد الربوبية، فيقرر كونه معبودًا وحده بكونه خالقًا رازقًا وحده.))[2].

3. الاستدلال بالفطرة على صفة العلو لله تعالى:

تحدث الإمام ابن تيمية عن مسألة إثبات الجهة لله تعالى وهو يرى بأن الدلائل تدل على أنه يثبت لله تعالى جهة العلو أو الفوقية؛ حيث يقول: ((علو الخالق على المخلوق وأنه فوق العالم، أمر مستقر في فطر العباد، معلوم لهم بالضرورة، كما اتفق عليه جميع الأمم، إقراراً بذلك، وتصديقاً من غير أن يتواطؤا على ذلك ويتشاعروا، وهم يخبرون عن أنفسهم أنهم يجدون التصديق بذلك في فطرهم.

وكذلك هم عندما يضطرون إلى قصد الله وإرادته، مثل قصده عند الدعاء والمسألة، يضطرون إلى توجه قلوبهم إلى العلو، فكما أنهم مضطرون إلى أن يوجهوا قلوبهم إلى العلو إليه، لا يجدون في قلوبهم توجهاً إلى جهة أخرى، ولا استواء الجهات كلها عندها وخلو القلب عن قصد جهة من الجهات بل يجدون قلوبهم مضطرة إلى أن تقصد جهة علوهم دون غيرها من الجهات.))[3].

وقد اعتبرها بعضهم صفة كما يقول محمد بن خليفة بن علي التميمي في مقدمة تحقيقه لكتاب العرش للإمام الذهبي حيث يقول: أن الفطرة السليمة قد جبلت على الاعتراف بعلو الله سبحانه وتعالى، ويظهر ذلك عندما يجد الإنسان نفسه مضطراً إلى أن يقصد جهة العلو ولو بالقلب حين الدعاء، وهذا الأمر لا يستطيع الإنسان دفعه عن نفسه فضلاً عن أن يرده. على قائله وينكر هذا الأمر عليه.

[1] ابن أبي العز الحنفي: شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق: أحمد شاكر؛ الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية، والأوقاف والدعوة والإرشاد ـ المملكة العربية السعودية ـ الطبعة الأولى 1418 هـ ص 28.
[2] ابن قيم الجوزية: التبيان في أقسام القرآن تحقيق: محمد حامد الفقي؛ الناشر: دار المعرفة، بيروت، لبنان (د ت) ص 428.
[3] ابن تيمية: درء تعارض العقل والنقل 5/7.

قال: ومما يدل على ذلك ما ذكره محمد بن طاهر المقدسي أن الشيخ أبا جعفر الهمداني حضر مجلس الاستاذ أبا المعالي الجويني المعروف بإمام الحرمين، وهو يتكلم في نفي صفة العلو عن الله تعالى؛ ويقول: ((كان الله ولا عرش، وهو الآن على ما كان)). فقال الشيخ أبو جعفر: ((يا أستاذ دعنا من ذكر العرش؛ أخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا، فإنه ما قال عارف قط: يا الله، إلا وجد من قلبه ضرورة تطلب العلو لا يلتفت يمنة ولا يسرة، فكيف تدفع هذه الضرورة على قلوبنا؟))؛ فلطم أبو المعالي على رأسه، وقال: حيرني الهمداني، حيرني الهمداني.[1]

وإن كنت أرى أن ما دلت عليه النصوص وكلام العلماء السابق من الفوقية والعلو أنه لا يحدد جهة بعينها لأن هذا الشعور مشترك بين الناس ومعلوم أن كروية الأرض التي نعيش عليها يعتبر العلو بالنسبة لها هو جميع الجاهات جهة السمو (السماء) فلا يصح بذلك تحديد مكان بعينه؛ والمعنى الصحيح لصفة العلو في حقه تعالى إنما هو علو شأنه ومر تبته فوق الخلق جميعاً.

كما وضّحه حجة الإسلام الغزالي في شرحه لاسمه تعالى "العلي" في قوله: ((هو الذي لا رتبة فوق رتبته وجميع المراتب منحطة عنه وذلك لأن العلي مشتق من العلو والعلو مأخوذ من العلو المقابل للسفل وذلك إما في درجات محسوسة كالدرج والمراقي وجميع الأجسام الموضوعة بعضها فوق بعض وإما في الرتب المعقولة للموجودات المرتبة نوعا من الترتيب العقلي فكل ما له الفوقية في المكان فله العلو المكاني وكل ما له الفوقية في الرتبة فله العلو في الرتبة والتدريجات العقلية مفهومة كالتدريجات الحسية ومثال الدرجات العقلية هو التفاوت الذي بين السبب والمسبب والعلة والمعلول والفاعل والقابل والكامل والناقص فإذا قدرت شيئا فهو سبب لشيء ثان وذلك الثاني سبب لثالث والثالث لرابع إلى عشر درجات مثلا فالعاشر واقع في الرتبة الأخيرة فهو الأسفل الأدنى والأول واقع في الدرجة الأولى من السببية فهو الأعلى ويكون الأول فوق الثاني فوقية بالمعنى لا بالمكان والعلو عبارة عن الفوقية.))[2]

وهذا هو المعنى الذي أثبته علماء التوحيد الأشاعرة لمعنى العلو دل عليه المعقول والمنقول. فمثل هذه الصفات لابدّ أن نثبتها لله تعالى مع التنزيه.

والله أعلم.

خاتمة:

مما سبق تبين لنا:

1.أن للفطرة معان متعددة ولكنها متقاربة تجمع في ثلاث معان من جهة الاصطلاح وهي:

الأول: الفطرة ما فطر الله عليه بني آدم من معرفته والإقرار بربوبيته ويدخل في ذلك العهد والميثاق، والإسلام.

والثاني: أن الفطرة هي الاستعداد القبلي لقبول الحق والإذعان له. والمعبر عنه بالسلامة والاستقامة.

[1] الذهبي: العرش، تحقيق: محمد بن خليفة بن علي التميمي؛ الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية ـ المدينة المنورة ـ الطبعة الثانية 1424هـ/2003م 153/1.من كلام المحقق.

[2] أبو حامد الغزالي: المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى: تحقيق: بسام عبد الوهاب الجابي؛ الناشر: الجفان والجابي – قبرص - الطبعة: الأولى، 1407 – 1987م (ص106،107).

الثالث: أن الفطرة هي البداءة وفي معناها المعرفة والإنكار.

2.وأن أقرب المعاني إلى الصواب هو معنى الأول والثاني؛ أي: ما فطر الله عليه بني آدم من معرفته والإقرار بربوبيته ويدخل في ذلك العهد والميثاق، والإسلام والمعنى الثاني: الاستعداد القبلي لقبول الحق والإذعان له. والمعبر عنه بالسلامة والاستقامة.

3.وأن أهم المسائل التي يستدل عليها بالفطرة هي مسألة وجود الباري تعالى ووحدانيته؛ أما ما تعلق بإثبات صفة العلو لله تعالى فكما قلنا فإن الفطرة لا تدل على إثبات مكان أو جهة بعينها في حق الله تعالى وإنما هي إثبات علو شأنه ورتبه على جميع خلقه عزّ وجل.

قائمة المصادر والمراجع:

- الفراهيدي: كتاب العين: تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي؛ الناشر: دار ومكتبة الهلال (دت)
- البخاري: صحيح البخاري: تحقيق: جماعة من العلماء الطبعة: السلطانية، بالمطبعة الكبرى الأميرية، ببولاق مصر، 1311 هـ، بأمر السلطان عبد الحميد الثاني ثم صَوّرها بعنايته: د. محمد زهير الناصر، وطبعها الطبعة الأولى عام 1422 هـ لدى دار طوق النجاة - بيروت
- مسلم: صحيح مسلم المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي الناشر: دار إحياء الكتب العربية: فيصل عيسى البابي الحلبي - القاهرة (وصَوّرتْها: دار إحياء التراث العربي - بيروت) (دت)
- الأزهري: تهذيب اللغة المحقق: محمد عوض مرعب الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الأولى، 2001م
- ابن منظور: لسان العرب الناشر: دار صادر – بيروت الطبعة: الثالثة - 1414 هـ
- الشافعي: مسند الإمام الشافعي المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى، 1421 هـ - 2001 م
- الراغب الأصفهاني: المفردات، المحقق: صفوان عدنان الداودي الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت -الطبعة: الأولى1412هـ
- ابن قتيبة: غريب القرآن، تحقيق: أحمد صقر؛ الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت - 1398هـ - 1978م
- الطبري: جامع البيان تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي؛ الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، 1422 هـ - 2001 م
- الزمخشري: الكشاف الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - 1407 هـ
- الفخر الرازي: مفاتيح الغيب الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - 1420 هـ

- محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير؛ الناشر: الدار التونسية للنشر - تونس- سنة النشر: 1984 هـ
- محمد بن فتوح الميورقي: تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم، تحقيق: الدكتورة: زبيدة محمد سعيد عبد العزيز؛ الناشر: مكتبة السنة ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى 1415هـ / 1995م
- ابن الجوزي: غريب الحديث، تحقيق: د. عبد المعطي أمين القلعجي؛ الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى 1405هـ/1985م
- العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري؛ الناشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ
- أسماء عودة عطا الله الصوفي: دور التربية الإسلامية في الحفاظ على الفطرة السليمة وسبل تعزيزه من خلال المؤسسات التربوية أطروحة ماجستير؛ إشراف: د. حمدان عبد الله الصوفي، قسم أصول التربية بكلية التربية في الجامعة الإسلامية بغزة 1432هـ/2011م
- ابن قيم الجوزية: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل؛ الناشر: دار المعرفة ـ بيروت ـ 1398هـ/1978م
- ابن عبد البر: الاستذكار، تحقيق: سالم محمد عطا، ومحمد علي معوض؛ الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت ـ الطبعة الأولى 1421هـ/2000م
- الجرجاني: التعريفات المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر؛ الناشر: دار الكتب العلمية بيروت -لبنان، الطبعة: الأولى 1403هـ -1983م
- ابن تيمية: مجموع الفتاوى المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم؛ الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية عام النشر: 1416هـ/1995م
- ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، تحقيق: يوسف بن أحمد البكري وشاكر بن توفيق العاروري؛ الناشر: رمادى للنشر- الدمام ـ الطبعة الأولى 1418هـ /1997م 1020/2.
- الإمام القرطبي: تفسير القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش؛ الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة ـ الطبعة الثانية 1384هـ/1964م
- ابن كثير: تفسير ابن كثير، المحقق: سامي بن محمد السلامة؛ الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية 1420هـ - 1999 م
- أبو حنيفة النعمان: الفقه الأكبر (مطبوع مع الشرح الميسر على الفقهين الأبسط والأكبر المنسوبين لأبي حنيفة تأليف محمد بن عبد الرحمن الخميس)؛ الناشر: مكتبة الفرقان ـ الإمارات العربية ـ الطبعة الأولى 1419هـ / 1999م

- أبو داود: سنن أبي داود، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - محمد كامل قره بللي؛ الناشر: دار الرسالة العالمية الطبعة: الأولى، 1430 هـ - 2009 م
- أبو سليمان الخطابي أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري)، تحقيق: د. محمد بن سعد بن عبد الرحمن آل سعود؛ الناشر: جامعة أم القرى (مركز البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي) الطبعة: الأولى، 1409*هـ - 1988 م
- ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين؛ الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت)، الطبعة: الثانية، 1441 هـ - 2019م
- ابن الوزير: إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد؛ الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الثانية، 1987م
- بدر الدين بن جماعة: إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل، تحقيق: وهبي سليمان غاوجي الألباني، الناشر: دار السلام للطباعة والنشر – مصر، الطبعة: الأولى، 1410هـ - 1990م
- د .عبد الكريم نوفان عبيدات: الدلالة العقلية في القرآن؛ الناشر دار النفائس للطباعة والنشر - الأردن –
- د. عمر سليمان الأشقر: العقيدة في الله؛ الناشر: دار النفائس للنشر والتوزيع ـ الأردن ـ الطبعة الثانية عشر 1419هـ / 1999م
- ابن أبي العز الحنفي: شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق: أحمد شاكر؛ الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية، والأوقاف والدعوة والإرشاد ـ المملكة العربية السعودية ـ الطبعة الأولى 1418 هـ
- ابن قيم الجوزية: التبيان في أقسام القرآن تحقيق: محمد حامد الفقي؛ الناشر: دار المعرفة، بيروت، لبنان (د ت)
- ابن تيمية: درء تعارض العقل والنقل تحقيق: الدكتور محمد رشاد سالم؛ الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، 1411 هـ - 1991م
- الذهبي: العرش، تحقيق: محمد بن خليفة بن علي التميمي؛ الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية ـ المدينة المنورة ـ الطبعة الثانية 1424هـ/2003م
- أبو حامد الغزالي: المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى: تحقيق: بسام عبد الوهاب الجابي؛ الناشر: الجفان والجابي – قبرص - الطبعة: الأولى، 1407 – 1987م